واسط

معاقل الكرامة

المقدمة

عقب التحول الكبير الذي شهده العراق في عام ألفين وثلاثة من طي صفحة الدكتاتورية، وثقافة القطب الواحد، إلى مزاولة العيش في خضم المتعدد والتساؤلات المستجدة ، تفجر النبض الشعبي على الساحة العراقية متعثرا مرة، ومستويا على سوقه مرة أخرى.

لقد مثل قطار الانتخابات، علامة التحول الفارقة التي تشي بالقادم الديمقراطي الجديد ألا وهو العراق. حيث تمت مزاولة الانتخابات بوصفها فعلا ديمقراطيا بناء، يتمخض عن خلاصة (كارزمية)، تأخذ بيد الشعب إلى منطقة النور وبر الأمان.

هذه الخلاصة، تمارس تمظهراتها على أكثر من صعيد حسب الشكل الهرمي للدولة العراقية الحديثة، حيث انتقل العراق إلى ما بعد الدولة، بعد أن كان يعيش مرحلة ماقبلية الدولة، حيث يتوزع فيها الحطام على أكثر من جهة.

وليس بخاف على أحد حدث انتخابات مجالس المحافظات الأخيرة، وما أفرزته من خرائط سياسية ستعمل على رسم تشكلات المشهد العراقي المقبل، ولعل أهم ما يلاحظ فيها أنها مورست في كل محافظة من محافظات العراق، آخذة بنظر الاعتبار خصوصية كل محافظة، وما تحمل في جغرافيتها السياسية، والخدمية، والاقتصادية من راهن وراهنات.

حيث كل محافظة شابهت أختها في الإطار، واختلفت عنها في الصيغة، ولاننسى أن هذا التباين يعكس بشكل جلي تباينات خفية، وهي إما حزبية، أو ظرفية، والتي مثلت الأديم الذي تحرك عليه الناخب العراقي، ذلك الناخب البسيط الذي غيرت ورقة اقتراعه الخاصة، مزاج العقل السياسي المحرك لجهاز الدولة الكبير في هذا البلد.

وما يلاحظ أيضا أن هذه الانتخابات تختلف عن سابقاتها من عدة أمور:

الأول: ان الانتخابات الأولى كان يحركها الهاجس الطائفي، فبعد أن فرضت الفوضى الخلاقة وجودها على الساحة العراقية، بات كل عراقي يبحث عن جماعة تحميه من الذئب المفترض، والذي يتربص بالغنم القاصية كما أنها (أي: الأولى)، لم يحدث فيها تزوير بصورة تسرق الأضواء، وتهيمن على مسارها.

والثاني: ان المواطن العراقي ربما قد أشبع إحساسه الطائفي الإيجابي، والذي كان يودي به سابقا إلى حبل المشنقة، فبات في الانتخابات اللاحقة يتمعن في البرنامج الانتخابي للأحزاب، ويدخر صوته لمن يأتي له بالخدمات الضرورية الملحة في الحياة اليومية، ضاربا عرض الحائط ما يتحدث به لسان الاحزاب، بخصوص ثقافة الرمز، والنواح على أمجاد الماضي، والذي يجعل المتكلمين به يمشون للأمام وتحديقتهم أبدا نحو الوراء.

الثالث: ان انتخابات مجالس المحافظات، برز فيها التزوير كوسيلة تتوسلها القوائم الخاسرة لإعادة إنتاج نفسها من جديد.

كل هذه الأسباب، وغيرها وقفت وراءها إرادة الناخب العراقي عارية في الميدان، تحركها الرغبة والأمل في خدمات أفضل، ومستوى اقتصادي أمثل، كأقصى غاية في المنى.

ونحن إذ نقف أمام هذه التساؤلات، محاطين بتحديات مختلفة وكثيرة، تحدونا الرغبة في تحقيق المواطنة الحقة قولا وفعلا، كي لانتحدث مرة أخرى عن عنق زجاجة جديد علينا الخروج منه ولو بجلدنا، بل علينا أن نثري السعي من أجل عراق متعدد الأطياف، وموحد الرؤى، لايستهدف سوى البناء والاعمار، وإبداء الوفاء للدماء التي سالت على هذه الأرض الطاهرة، من أجل الانسان.

الدكتور إبراهيم الجعفري كعادته، وهو ينطلق من وطنيته المبدئية في النظر الى كل الاستحقاقات الديموقراطية، زار محافظات عراقية عدة، اثناء حملة انتخابات مجالس المحافظات، مذكرا اهلها بان الاختيار لعضوية مجالس المحافظات مسؤولية وطنية، وانهم اهل لهذه المسؤولية، داعيا اياهم الى النظر بتبصر لما سبق، وتحديد الاتجاهات اللاحقة، لما يحقق خدمة العراق اجمع.

إن مؤسسة الكتاب الثقافية إذ تقدم اصدارها هذا والمسمى (رحلة الكلمة)، فهي راغبة بان يطلع العراقيون جميعا على نوعية متميزة من الخطابات، والتي تنظر الى العراق ككل قوي، يتكامل بعضه مع البعض الاخر، حيث يمتعنا الجعفري بلغته المتميزة، وباسلوبه الجميل في الطرح.

أن تنفق في السراء فهو متوقع لأن مالك كثير، ولأن جاهك واسع، أما أن تنفق في الضرّاء وأنت غير ميسور الحال لا تملك شيئاً فهذا يستدعي غرضاً قرآنياً تربوياً، هو أن الإنفاق في كل الأحوال لأجل الحفاظ على ملكة الإنفاق، ووقايتها من الموت، الإسلام يريد أن يربّي أبناءه وبناته على ملكة الإنفاق، ويكون شعارهم في كل حال هو أن المسلم ينفق من ماله، ومن علمه، ومن سمعته، ومن أخلاقه، وينفق كذلك من دمه.

....

الأمة التي لا تحترم شهداءها أمة ميتة لا حياة فيها؛ لأنها تستمد حياتها من الذين أنتجوها، وصنعوها، وضحّوا من أجلها.. أمم العالم اليوم تغوص في تاريخها؛ لتستلّ واحداً منهم، وتضفي عليه طابع الشهادة، ثم تتغنى به، ثم تتخذ من يوم شهادته عيداً وطنياً.

....

ليست جدران السجن ذلة وعبودية دائماً؛ لأن الدنيا قد تضيق بما وسِعت لكبر نفوس هؤلاء، وقد يتسع لك السجن عندما يكون السجن إشارة، وهوية للقيم، والانقطاع إلى الله (تبارك وتعالى)، وعلى كلا الصعيدين: من قتل في سبيل الله، وتسنم موقع الشهادة، ومن قارب الشهادة، وعاش جوار الشهداء، ومبادئ الشهداء، قيم الشهداء، وارتقى عند الله (تبارك وتعالى) إلى مقام الشهداء، نطلق عليه مجازاً بـ (الشهيد الحي).

....

إنما نحترم سجناءنا وسجيناتنا؛ لأنهم فهموا أن الفكرة تضحية، والفكرة عطاء لا تكسّب، فيضحون من أجلها، إنما نحترم، ونكبّر الشهداء من الرجال والنساء، وننحني إجلالاً وإكباراً وتقديراً؛ لأنهم طرّزوا الأرض بأزكى الدماء، وتركوا كل شيء من أجل مبادئهم وقيمهم؛ وكانوا كباراً بعقولهم عندما يفكرون، وكانوا كباراً بل أكبر في قلوبهم عندما عُمّرت بالقيم والمبادئ والمفاهيم، فلم يفهموا الإسلام قطيعة، ولا فهموا الإسلام اتهامات، ولا فهموا الإسلام مصالح، ولا فهموا الإسلام تكسّباً، إنما فهموا الإسلام أخلاقاً وتضحية وعطاء فكر.

كلمة دولة الدكتور ابراهيم الجعفري خلال زيارته مؤسسة السجناء في مدينة الكوت بتاريخ 2009/1/15

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتمّ السلام على أشرف الخلق أجمعين سيد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين وجميع عباد الله الصالحين..

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته...

خلال استماعي للترتيلة الخاشعة الرائعة، التي توّجت مجلسكم هذا من قبل هذا المقرئ الموهوب، لفت انتباهي آية من كتاب الله العزيز، سأفتتح حديثي بها، ولديّ ثلاث وقفات في ثلاثة مواطن، أما الآية القرآنية الكريمة، فهي:

((الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)).

وإما الوقفات الثلاث فهي عند السجناء والشهداء، وعند الجهود والمسؤولية التي تـُبذل من أجلهم.

الآية القرآنية الكريمة، تأخذنا على شوط الارتقاء حتى نصل إلى المستوى الأقصى خطوة بعد أخرى، ودرجة بعد أخرى:

((الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء)).

علامتهم أنهم ينفقون، وكلمة (الإنفاق) لا دليل على تحديدها، فنأخذها بشكل مطلق:

((يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء)).

أي: ينفقون من أموالهم، ومن علمهم، ومن سلوكهم، وينفقون دماءهم كذلك، لأنه لا دليل يفيد التقييد، وبما أن الأصل في الأشياء هو الإطلاق والعموم حتى يأتي دليل التخصيص؛ فالآية عامة في دلالتها:

((الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء)).

أن تنفق في السراء فهو متوقع لأن مالك كثير، ولأن جاهك واسع، أما أن تنفق في الضرّاء وأنت غير ميسور الحال لا تملك شيئاً فهذا يستدعي غرضاً قرآنياً تربوياً،

هو أن الإنفاق في كل الأحوال لأجل الحفاظ على ملكة الإنفاق، ووقايتها من الموت، الإسلام يريد أن يربّي أبناءه وبناته على ملكة الإنفاق، ويكون شعارهم في كل حال هو أن المسلم ينفق من ماله، ومن علمه، ومن سمعته، ومن أخلاقه، وينفق كذلك من دمه.

ترتقي بنا الآية القرآنية الكريمة، درجة بعد أخرى في السراء والضرّاء:

((وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)).

الكظم عند العرب: هو القِربة عندما تـُملأ ماءً تـُختم بالطين كي لا يُسكَب الماء، ومن يقول كظمت غيظي، أي: إني مسكت على نفسي علامات الغضب، وتخرج على شكل ألفاظ، أو مواقف و(الكاظم)، هو كاظم الغيظ، ومنه تحولت سمة الإمام الكاظم (عليه السلام)، التي غلبت عليه الى لقب الإمام الكاظم، وإلا كل أئمة أهل البيت كاظمون، بما أنهم جميعاً صادقون وكلهم عباد، لكن عندما تغلب صفة بسبب الظرف على بقية الصفات تتحوّل إلى لقب:

((وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ)).

هذه علامتهم، لا يقفون عند هذا الحد، هو ينفق، ويكظم غيظه، ويعفو عمّن أساء إليه:

((خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ)).

إذن تجد علامة هذا الإنسان المؤمن أنه يكظم غيضه، ولا يسمح لنفسه أن تترشح منها الانفعالات والكراهية، والحقد وغيرها فتطفح على وجهه؛ لتسقط على الآخرين فتنتج تلقيات مضادة، ولا يقف الإسلام عند هذا الحد، بل يريد منا أن نرتقي أكثر:

((وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)).

لننظر بماذا بدأت الآية القرآنية الكريمة، والى أين تريد أن تنتهي بنا، ابتدأت بالإنفاق، ثم كظم الغيض، ولم يكفِ العفو عمّن أساء، إنما تدفع المؤمن إلى مسرح الحياة حاملاً شعار:

((وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)).

ابدأ بالوقفات الثلاث محدداً المواطن الثلاثة، وقفة مع الشهيد، من هو الشهيد؟ القرآن الكريم ينهانا نهياً مؤكداً عن اعتبار الشهيد ميتاً بل يؤكد العكس:

((وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)).

لماذا أحياء؟ لأن تعريف الحياة في القرآن الكريم يُتحصّل من عنصرين أساسيين: عنصر التوليد والإنتاج، وعنصر الشعور بالسعادة، ومادام الإنسان منتجاً في هذه الحياة، ويعمّر حياته بكل علامات التنمية، والنمو، والاضطراد، ومادام مسروراً سعيداً في داخله، ومع من يتعامل معه، فهو حي، وإذا فقد قدرته الإنتاجية، وفقد سعادته، وشعوره بالراحة أصبح ميتاً، وإن كان يمشي بين الأحياء. من يدقق النظر في هذه الآية، يجد أن الكثير من الأموات يتحركون بيننا في الشوارع، ويعيشون كالحيوانات لأنهم لايفهمون من الحياة إلا الأكل والشرب، ولا يفهمون معنى السعادة، ومعنى الفرح الحقيقي:

((بَلْ أَحْيَاء)).

ما الجواب؟ الجواب هو توافر العنصرين أولاً:

((عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)).

وأي إنتاج أعظم، وأروع من أن يكون الإنسان مرزوقاً عند الله (تبارك وتعالى)، والشهيد اقترب من الله (تعالى شأنه)، أقرب ما يكون من العباد، هذا العنصر الأول، إذن هو منتج، وإنتاجه مستمر:

((عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)).

العنصر الثاني، عنصر السعادة والفرح:

((فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)).

عندما يعد الله (تبارك وتعالى)، عباده المؤمنين بشيء في محكم كتابه يعدهم بهذه الصفة:

((أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)).

إذن، نحن عندما نذكر الشهيد، يجب أن نستحضر معرفياً من هو الشهيد، لا ينبغي ان نعظّم الشهيد بالألفاظ، والخطب، والكلمات، والقصائد ونحن لا نعي الشهيد وهو في ذلك المقام القربي الشأني عند الله (تبارك وتعالى)، حي، يُرزق، فرح، مستبشر، هذه وقفة قرآنية أستوحيتها الآن، وأنا أستمع إلى هذه التلاوة المعطّرة.

عندما نستحضر الشهيد، علينا أن نعود الى معمله ومصنعه، وإلى القيم التي صنعته، وإلى حاملي القيم من الآباء والأمهات، إذن نحن أمام محطة قيم تحرّكت في هذا

البيت، في هذا المصنع، وأنتجت شهيداً، وإذا كان الشهيد قد رحل، فإن قيمه ومبادئه وأفكاره ونظرياته التي عاش وترعرع فيها موجودة، ونحن على موعد لأن نأخذ من ذلك البيت هكذا ينبغي أن نرى، وننظر إلى بيوت الشهداء، وآباء الشهداء وأمهاتهم.

الأمة التي لا تحترم شهداءها أمة ميتة لا حياة فيها؛ لأنها تستمد حياتها من الذين أنتجوها، وصنعوها، وضحّوا من أجلها.. أمم العالم اليوم تغوص في تاريخها؛ لتستلّ واحداً منهم، وتضفي عليه طابع الشهادة، ثم تتغنى به، ثم تتخذ من يوم شهادته عيداً وطنياً، كالذي حصل في عام 1429 في فرنسا، إذ تتغنى اليوم بعد أن استفاقت من سبات طويل غطت به حتى عام 1907 أي بعد نحو 500 سنة، وبدأت تحيي ذكرى (جان دارك)، البنت الشابة التي كان عمرها 18 سنة، والتي ضحت دفاعاً عن فرنسا ضد الاحتلال البريطاني.

الفرنسيون، سنوياً لديهم عيد وطني يتغنون بهذه الشابة التي ناضلت، وقـُتِلت دفاعاً عن السيادة الفرنسية، ورأيتم قبل قليل أحد النماذج أنجب سبعة شهداء في بيت واحد، وأنا على يقين أن هذه البيوت المعطاء التي انتشرت في كل مناطق العراق فيها سبعة، وفيها ثمانية، وفيها أحياناً عشرة، وقد تتجاوز العشرة، من هنا عندما ننظر إلى عوائل الشهداء، ينبغي أن ننظر لهم بكل احترام، وننظر ألى الأمانة التي خلـّفوها، وننظر كذلك إلى البيت الذي أنتج الشهيد.. إلى الفكر الذي صنع شخصية الشهيد.. إلى القيم التي نحتت ضمير الشهيد، ووجدانه، وسريرته بحيث لم يضعف أمام سطوة السلطان، ولم تغرّه المكاسب فقـُتِل دون قيمه ومبادئه.. فليس كثيراً علينا أن نمعن النظر إلى بيوت الشهداء، وهذا أقلّ الوفاء والعرفان بالجميل، لمن وهب أغلى شيء في حياته لنا، وجاد بالنفس:

يجود بالنفس ان ضن الجواد بها

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

أنتقل إلى الوقفة الثانية، (السجن والسجناء)، السجن مدرسة، وربما شـُرّع السجن في السابق لأسباب تشير إلى الغلبة والانتقام، لكنه في عصر صدر الإسلام، وحين تبنـّاه أمير المؤمنين (عليه السلام) في الكوفة، بنى بناية، ووضع لها حرساً، ووضع لها منهجاً للتعامل مع السجناء، فأصبح السجن مدرسة، تتولى عملية تربية السجين خلال منذ دخوله له حتى خروجه منه، لكن السجن منذ مرحلة ما قبل الإسلام يختلف من سجين لآخر، فقد يوجد سجين مُعطٍ، يحمل فكراً نوعياً، ويفرغ حمولته النوعية على السجناء مثلما كان يوسف:

((قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)).

ثم دخل السجن ودخل معه فتيان، ويسأله أحد صاحبي السجن، قال:

((إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ)).

والثاني، قال:

((نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)).

لنرجع إلى الآية التي تـلِيت قبل قليل:

((وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)).

صفة الإحسان كانت تتكرر عند ذكر النبي يوسف (عليه السلام)، نعم، لأنها كانت أقصى درجات التعامل بإحسان، وما بعد السجن كان (سلام الله عليه) يتقي، ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، كان النبي معطاء في السجن، وحوّل السجن إلى مدرسة في التلقي، بعد أن تحوّل إلى مُعطٍ قيمي، وفكري، ومبدئي.

ليس ضعفاً أن تحتويك جدران أربعة، بل هو قوة، فالمصلحون وبعض الأنبياء وقادة العالم مروا بمدرسة السجن، وحوّلوها إلى مجال للإثراء، والإغناء، والعطاء، الإمام الكاظم (عليه السلام) كان يتنقل من سجن إلى آخر، والامام الصادق (عليه السلام)، يقول بما مضمونه: (الحر حر وإن تداعت عليه المصائب).

ليست جدران السجن ذلة وعبودية دائماً؛ لأن الدنيا قد تضيق بما وسِعت لكبر نفوس هؤلاء، وقد يتسع لك السجن عندما يكون السجن إشارة، وهوية للقيم، والانقطاع إلى الله (تبارك وتعالى)، وعلى كلا الصعيدين: من قتل في سبيل الله، وتسنم موقع الشهادة، ومن قارب الشهادة، وعاش جوار الشهداء، ومبادئ الشهداء، قيم الشهداء، وارتقى عند الله (تبارك وتعالى) إلى مقام الشهداء، نطلق عليه مجازاً بـ (الشهيد الحي).

أي شهادة أحلى من هذه الشهادة؟ في كل شيء نريد قوة، ونريد أمانة، فالقوة قابلة للاكتساب، أما الأمانة فهي ليست قابلة للاكتساب، ففي التجربة يمكن اكتساب المهارات، والخبرات، والارتقاء على سُلـّم التكامل، أما عندما تكون خائناً، فلا أحد يستطيع أن يجازف، ويسلمك أمانة.. المسؤولية الذي تحمّلها الشهداء، والتي عاش من جرائها تجربة السجن بشكل أو بآخر، إنما هو دليل على قوة أمانته، وعلى نصاعة نزاهته، وعندما تمتزج عناصر الكفاءة والقوة، مع عناصر النزاهة والتضحية، فأي إنسان يستطيع أن يحمل المسؤولية أفضل من هذا؟!. السجين تراه

دائماً يأخذ من السجن، ولم يأخذ السجن منه، وتراه اتسع لكل الناس، ولم يقاطع أحداً، أو ينكفئ على ذاته، بل اتسع للكل وعاش فضاء المبادئ.. أتذكر (الحديث للدكتور الجعفري) أن رسالة وصلتني من الشهداء الخمسة، (الشيخ عارف البصري، والشيخ عماد التبريزي، والشهيد عز الدين القبانجي، والسيد نوري طعمة، السيد جلال خان)، الذين نفذ بحقهم القرار الجائر والظالم، قرار الإعدام، كان فيها وصية، منهم لأنهم عاشوا المبادئ بأجلى صورها، عاشوا متفانين من أجل المبادئ والقيم، وكما تعلمون جيداً أنهم أخذوا بتهمة شرف الانتماء إلى حزب الدعوة الإسلامية، وكانت الوصية تقول: (الله الله بالإسلام فإنه أمانة الله في عنقك)، الإسلام الذي بدأ الكثير يفتقرون إليه، وبدأت أخلاقهم تنحو بغير طريق الإسلام، وبدأوا يسخـّرون الفكر لخدمة الانتماء، بدلاً من أن يسخـّرو الانتماء لخدمة الفكرة.

لا يرفع الإنسان شيء ما لم يكن حاضره ينبض بالقيم، والفكر الذي أسّسه السيد الصدر (قدس الله نفسه الزكية)، المفكر الفذ، والمرجع الكبير أبى إلا أن يوشّح كلمته الرائعة بدمه الطاهر، من يحمل الفكرة ينبغي أن يدفع استحقاقاتها، لا ينبغي أن تباع، وتشترى.

إنما نحترم سجناءنا وسجيناتنا؛ لأنهم فهموا أن الفكرة تضحية، والفكرة عطاء لا تكسّب، فيضحون من أجلها، إنما نحترم، ونكبّر الشهداء من الرجال والنساء، وننحني إجلالاً وإكباراً وتقديراً؛ لأنهم طرّزوا الأرض بأزكى الدماء، وتركوا كل شيء من أجل مبادئهم وقيمهم؛ وكانوا كباراً بعقولهم عندما يفكرون، وكانوا كباراً بل أكبر في قلوبهم عندما عُمّرت بالقيم والمبادئ والمفاهيم، فلم يفهموا الإسلام قطيعة، ولا فهموا الإسلام اتهامات، ولا فهموا الإسلام مصالح، ولا فهموا الإسلام تكسّباً، إنما فهموا الإسلام أخلاقاً وتضحية وعطاء فكر.

لأروِ لكم قصة ثانية، والقصص كثيرة، عندما اعتقل الشهيد (جلوخان) في اعتقاله الأول خرج فترة، ثم اعتقل ثانية، حكى لي هذه القصة: ان المحقق الذي كان يمارس عليّ عمل التعذيب كان يسألني بعدما يتعب، يقول لي طيب سأتكلم معك بعيداً عن واجبي كمحقق أو كمعذب أو الى آخره، أنت شاب ولاتزال في مقتبل العمر، وأنت خريج كلية الاقتصاد، ما الذي أتى بك إلى هذه الأمور، دين؟ فقال للسجان: إني أريد أن أقدم خدمة لبلدي، كيف أقدم خدمة لبلدي هل أذهب إلى الأندية، وأقول: اشربوا خمراً، أو تعلموا على السرقة، ماذا أقول لهم؟ أقول لهم قدموا خدمة للبلد من خلال سريرتكم.. من خلال حبكم لوطنكم، وأنا أعتقد أن الدين يتولى عملية بناء الشخصية، ويجعل من المواطن مواطناً صالحاً، يمنعه من الغش.. من السرقة.. من الكذب.. من النفاق.. من الخيانة بالبلد، ويربيه تربية صالحة، فقال السجان: والله

كلامك صحيح، يقول كنت أستمر معه في الحوار، وبعد ذلك قال لي: انظر هؤلاء الجالسين فوق، يجب أن يسمعوا أني أضربك، فأنا سأضرب الحائط، وأنت اصرخ، حتى يعرفوا أني أضربك، فكان يضرب الحائط في حين، ويقول لي: صعّد صوتك، صعّد صوتك؛ حتى يسمعوك.

هذا هو السجين، وهذا هو الداعية ذو الهوية الحركية الناصعة المشرفة التي شرفتنا جميعاً، جعلت السيد الصدر ينطلق مؤسساً، ثم يمر ذلك الناظم الفكري والقيمي عبر القادة الدعاة الرائعين من أمثال الحاج صاحب دخيل، والكثير غيره من القادة.. هؤلاء هم الدعاة.

الإسلام دين السلم دين العطاء والبذل والتضحية، لقد جرت علينا بعض النماذج، وجرت علينا الويلات على الإسلام، أصبحنا عاراً على الإسلام، صدق زين العابدين (عليه السلام) حين قال: (أحبونا حب الإسلام فوالله ما برح حبكم لنا حتى أصبحتم عاراً علينا، وبغضتمونا إلى الناس).

ليسمع الناس من هم شيعة آل بيت الرحمة، تجدهم بالعطاء والبذل والتضحية، وإصلاح ذات البين والثقافة والعلم والزهد والعبادة والتسامح والإحسان:

(إن الرجل منكم اذا ورع بدينه، وصدق بحديثه، ووصل الرحم، وقرى الضيف، يقال عنه انه شيعي ويفرحني ذلك).

هذا هو الشيعي، ليس الذي يعيش كَلاً على الآخرين، هذا هو الشيعي.

أما الوقفة الثالثة، وهي ما الذي عملنا لهؤلاء؟ فمنذ دخلت أرض العراق، وتحديداً في 26/ 27 من الشهر الرابع عام 2003، بعد غياب طال 23 سنة وشهرين و21 يوماً، دخلت وبعدها بفترة دخل (بريمر) بعد (كارنر)، (وهما الحاكمان المدنيان اللذان تعاقبا على حكم العراق قبل نقل السيادة إلى حكومة إياد علاوي)، وفي أول لقاء بيني وبينه، طلبت شيئين، طلبت تحديد مرقد شريف، وأرض للسيد الشهيد (محمد باقر الصدر)، وطلبت إعالة ذوي الشهداء، وتخصيص مبالغ، وحددت أن تكون هذه المبالغ من موارد النفط بنسبة معينة، وهذه النقطة الثانية ذكرها بريمر في مذكراته، قال: اول ما التقينا كان يتكلم بحقوق الشهداء وعوائل الشهداء، فكان جواب (بريمر): هذه قضية متروكة لكم.. دع هذا المشروع ينتهي وهو مجلس الحكم، ثم قرروا ونحن نوافق على ذلك.

تشكل مجلس الحكم في اليوم الاول، وحصل تعارف في اليوم الثاني، وقدمت مشروع إعالة ذوي الشهداء، ووزعت نسخاً على عدد من أعضاء مجلس الحكم،

وتم التصويت عليه بالإجماع وفي اليوم الثاني مباشرة بعد تأسيس مجلس الحكم، تحدثت في مجلس الحكم عن الشهداء ودور الشهداء، وما أصابهم، وبقيت أتابع موضوع عوائل الشهداء، وبعد أن جرى التصويت عليه بالاجماع، وأقر مبدأ إعالة ذوي الشهداء، ولكن لم يخصّص لهم مبلغ، وتابعت الأمر، لكن كانت الإجابة بانه لايوجد باب في الميزانية اسمه (إعالة ذوي الشهداء)، وأحيل الأمر بعد ذلك إلى المعونات المالية التي تأتينا من نادي مدريد في 15/10/2003، وجاءت المنح، ولكن لم يخصص منها شيء لأنها كانت موجهة للإنفاق في حقول محددة، وهي الكهرباء، والمدارس، والطرق والجسور، والمتاحف، وغيرها، فواجهنا صعوبات، وتشكلت على أثرها لجنة كنت أتولى رئاستها، وهي (لجنة إعالة ذوي الشهداء)، وكان معي مجموعة من الإخوان، منهم: (الشيخ غازي الياور، وسمير الصميدعي، والاستاذ فالح الفياض، ومجموعة من الأعضاء)، ووضعنا ورقة إعالة ذوي الشهداء، لأنا واجهنا صعوبة في تعريف الشهيد، والمجموعة التي يفترض أن نرعاها من ذوي الشهداء، ولكنا استفدنا من أبواب الفقه المعروفة، التي تقسم ذوي القربى إلى طبقات (الأولى والثانية والثالثة)، وكل طبقة تحجب المال والمساعدة عن الطبقة التي تليها، فاستفدنا منها، وقلنا لابد من أن يكون الدعم دعماً على صعيدين صعيد معنوي وصعيد مادي.

انتهى مجلس الحكم، ولم يُنفـّذ هذا المشروع، وطالبنا به، فقالوا إن الجمعية الوطنية ليست لها صلاحية التشريع، وإنما تكون على البرلمان اللاحق عام 2005، وهي الفترة التي توليت فيها رئاسة الوزراء، وبقينا نتابعه إلى أن جرى التصويت عليه، وكان المشروع مهيّأً، وتم البت به، وتأسست لجنة، لجنة إعالة ذوي الشهداء، ثم خرج الى النور، وعلى كل حال فقد ثبت المبدأ، وتشكل نفس الشيء بالنسبة للسجناء، ماذا يعني أن يعيش الإنسان منقطعاً في السجن، سنين تتلو الأخرى، ماذا يعني هذا، أي شيء أشرف من إنسان يعزف عن الدنيا بكل بهارجها، ويؤثر حياة السجن، لو كان هذا الإنسان مستعداً لبيع قيمه وأخلاقه، ويتنازل عن أهدافه، وطموحاته، ويعيش كما يعيش الآخرون، لما سجن؟.

أملي بأبنائي وبناتي من ذوي الشهداء والسجناء أن يواصلوا دورهم النضالي، وأن بناء العراق الجديد استمرار لدورهم الذي ضحّوا لاجله سابقاً، وهم الآن يحملون أمانتين، أمانة تضحيتهم وأمانة سجنهم في ذلك المكان، ويجب أن يبرهنوا أنهم اكبر من جدران السجن بقيمهم ومبادئهم واخلاقهم وقلوبهم، وإذا كان البعض ممن أطلق سراحه في بعض السجون الخارجية تخيّم عليه الكآبة، والانطواء والانكفاء فإن سجناءنا وسجيناتنا أكبر من ذلك بكثير، يعمّرون الحياة من حولهم، لسعة قلوبهم

وعقولهم، وإن انقطعوا عن الناس فإنهم لم ينقطعوا عن منبع القيم والأفكار والمبادئ هذا هو ما قاله الإمام الكاظم (عليه السلام):

(لطالما كنت أدعو الله - تبارك وتعالى- أن يفرّغ لي مكاناً للعبادة).

لست سجيناً عندما تعيش في جدران أربعة، تكون إنما تكون سجيناً سلبياً، وأسيراً سلبياً عندما تحاصرك نفسك في داخلك، وعندما تكون ضئيلاً، وضعيفاً، ومحاصراً من الداخل، والحصار من خارج السجن يبعث به قوة ويشده إلى المبدأ، وأروع المبادئ والقيم أنها تتعمق وتتجذر، وأحسن مكان تتجذر فيه القيم والمبادئ هو السجن.

تنتظركم مهام كثيرة، يجب أن تعملوا من أجل تحسين ظروف السجناء وعوائل الشهداء، وهذا أقل القليل، وأدنى العرفان بالجميل، ولتكن صفتا الشهيد والسجين علامتين وضاءتين ومعيارين للتفاضل.. أرجو الله (تبارك وتعالى) أن توفقوا، ونوفق معكم، في التواصل لبناء العراق الجديد؛ فإنه عراقكم، ومثلما صنعتم تاريخ العراق، بتقويض الدكتاتورية، عليكم صناعة العراق بإقامة العدل والمساواة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.